جذور الحياة

قصة

بقلم عائشة ارناؤوط

كان السلم الذي اصعده طويلا جدا، ويدي المجروحة تترحلق ببطء على الدرابزين العتيق المنحور ..

انني تعبة رغم الحياة الجديدة التي تعتريني ، رغم الشعور الخفي الذي يتعرق في اعماقي ماتحا النبع الغني لحياتي الشعور الذي يقول بأن امي ستعود .. ستعود يوما ما ..

تتراءى الي من بعيد ، من خلال الأبواب الكثيرة المغلقة في هذا البيت الموحش صوت «لانا» ضاحكة مع المربية، ولا أستطيع ازاء هذا الشيء الا أن ارسم ابتسامة ما .. بالوان قاتمة ، هذه الابتسامة كنت أقابل بها ضحك لانا دوما .. وكانت تكلفني الكثير ..

أواه يا جدتي الصغيرة ، لم يبق لك سواي ، ولم أبق الا لك ، كلهم رحلوا تاركين في أعماق هذا البيت الأسود العتيق .. ربيعا وشتاء ..

وصلت الى المنحنى .. حيث الباب الكبير ، وتدفقت أصادين من حيني الى المقبض .. وأدرته ، الوجه الصغير الأبيض ، والشعر الساتع من قلب الشمس ، والعينان البنفسجيتان ، كل هذه الأشياء تتصلب أمام عيني بمجرد دخولي .. طارت لانا الى أحضاني ، وهي تتمرغ بثيابي التي تحمل رائحة البرد الخانقة .. وعانقتها اشباح حلمي .. وبللها مطر شتائي الذي يعني تاركا الربيع يدوس حتفه في النهاية ..

دون ارادة ، كنت أحس أنني اريد ان أكون وحيدي لفترة ما .. نظرت الى المربية كانت تفهم كل ما اريد أن اقوله لها من نظراتي .. وبهدوء عجيب وضعت ارنبي توجهت نحو لانا وقالت لها

ـ تعالي ياحبيبتي .. فقد حان وقت النوم ..

رفضت لانا نادية الأمر هذا الشيء ، كانت تريد الجلوس في حضني أمام الموقد الكبير المشتعل .. كانت تريد ان اقص عليها الحكايات عن امها الراحلة التي ستعود يوما ما .. سيضعها طائر أبيض كبير على السطح وستهبط البنا حاملة باسمين السماء العلى ، أو ستنزل من سيارة سوداء مجهولة في المنعطف القريب من الدار وستصعد الى البيت الكبير محتارة الحديقة التي لم يعد يعتني بها أحد .. بعد موتها

كنت أحس تماما بأن هذه الأشياء

وحدها تعشش في صدرها من طريقه انتصابها الجامد وسط الغرفة ..

نظرت اليها .. وقلت لها ببرود « ليلة سعيدة .. » وادرت ظهري .. واخيرا .. لم تجد بدا من ان تمد يدها للغريبة وتخرج دون أن تعطني قبلة المساء ..

البيت الكبير غارق في عباءة من الصمت ،والنيران انطفأت ومات لهيبها في حنجرة الموقد السوداء ولأول مرة توجهت نحو غرفة ابنتي الملاصقة لغرفتي ، ولأول مرة .. أجرؤ على فتح بابها بعد قتلت بظروف غامضة

كان للباب أزيز حاد هزني .. وما أن فتحته على مصراعيه حتى انسابت الى أنفي رائحة العفن الرطب ، تعانق رائحة عهد قديم مضى يصبح من حطبه ذكريات ..

دخلت ، كان كل ما حولي تنسجه عناكب الظلام بصمت ، وبعد مرتجفة أشعلت الشمعتين ، كل ما في الغرفة ميت .. وحزين .. واسود ..

سريرها وقد علته طبقة من الغبار.. الأرض وعليها بصمع نقاط من الدم الأسود.. والحاكي.. وبصع اسطوانات .. والموقد والرماد، والسقف الذي صار مأوى للعناكب ، وصرير السوس الذي يقرض الخشب يمزق السكون الرهيب بصومة خافتة ..

كانت عيناي تتلفتان كل ذلك ، وتحترقان اليأس المرير القاتل ، سنتاتي اليوم .. ! وسقطا قدماها أرض هذه الغرفة .. أجل .. انها سنتاتي وها أنا أنتظرها ..

غرقت من نقاط الدم ، وانحنيت معكرة بشكل لا ارادي .. وارتسم وجهها الأسمر .. يبتسم .. عابقا برائحة الشمس المحترقة .. ويتكلم

ـ أتذكرين شجرة الحور التي اقتطعها زوجي قبل أسبوعين بالماء ..؟

ـ أجل ..

ـ لقد لا حظت اليوم .. وانا أتطف الحديقة ان عدة اغصان صغيرة نبتت من بقايا الجذع ، لقد هزني منظرها ، وشعرت بأن شيئا غريبا يمكن ان يحدث في هذا العالم مادامت الارادة .

انها الجذور التي تربط كل شيء بالحياة ..

كنت منحنية يمر أمامي كل شيء ويكرر مرة اخرى مختلطا مع النقاط الدموية ووجاة تحول وجهها الأسمر الباسم .. الى وجه شاحب يبكي .. لقد مات زوجها ، التهمته عجلات سيارة مجهولة سوداء .. وبقينا وحدنا نحن الثلاثة بعده .. ، أنا ولانا .. وهي

رائعة كانت زعيمتها بالحياة .. ولا ازال أذكر سهراتنا كلها واحدة فواحدة .. على ضوء القمر في الحديقة .. في حمى الصيف ، أما في الشتاء ،فقد كانت الغرفة المطلة تضمنا ، والموقد يحتضن أعين الليل وشروره لاأزال أذكر الموقد المشتعل .. وبخار الشاي المتصاعد من الأقداح ، كانت رائعة .. وكنت أحبها ، أحب التصميم المرتسم في عينيها ، والشموخ المغمض في جبينها ، كانت حيارة وعنيدة .. عندما تتدخل ارادتها في شيء .. فيتأويل السدود ..

كانت تحب الحياة بشكل عنيف لانها تريد ان تبقى لانتهبا لانا .. حياة زاخرة بالسعادة .. فكل الخيوط التى تربطها بالعالم .. تمر من المحور «لانا» التى لم تكن قد تجاوزت آنذاك السنة والنصف من العمر ..

كانت تريد أن تعيش لاجلها .. ولاتزال كلماتها ولايزال صوتها يسكن كأنه ناسع من فمها فى هذه اللحظة الصامتة ..

ـ أريد ان أعيش لها أن أشعرها بانها لم تحرم من الأب قط ، اريد أن اعطيها حنانى .. وحبى وقلبى .

كانت قوية الثقة بنفسها لاتريد من أحد أن يساعدها فى اعمالها .. فمنذ الصباح الباكر تغسل الجواد ، وتعتنى بزهور الحديقة ،وتقطف الممرات وتطبخ . كانت كل شىء فى دارنا الكبيرة ، كانت الرجل .. وكانت المرأة .. ان حبها للحياة اعطاها هذه القوة الهائلة السحرية .. والآن .. الحصان هزيل .. يرعى الحشائش الطفيلية النابتة .. والزهور .. لاتزال هناك متلاحمة بيأس مع الشوك .. تنتظر يدا تقطفها وتحملها الى البيت ..

لكن كل هذه الآمال ستبقى آمالا ميتة .. والحصان لن يطعمه أحد والحديقة ستظل تهب الأشواك والحشائش التى ستبتلع الزهور يوما ما .. والممرات ستظل مملوءة بأوراق الأشجار الجافة .. والقبر .. الذى يحتم موت الأمل .. القبر الصغير .. فى الحديقة .. الذى هدها منذ سنتين هدم أملها .. وارادتها .. وبيد حياتها .. لقد ماتت مقتولة هنا فى هذه الغرفة بخنجر قديم صدئ . وكانت ميتة بشعة وعنيفة ، ولم تكن تحب ميتة كهذه .. كانت تقول : ان الميتة الحلوة .. هى التى تكون بأيدى .. برعة هدب .. وينسى كل شىء ، لكنها ماتت بعنف وفى الظلام ولم يعرف القاتل .. ولم تعرف الأسباب .. كانت مؤامرة مجهولة لم تنسج الا لقطع الخيوط الحلوة .. وفى هذا البيت الرائع ..

وفجأة بادى، الأمر ان أصدق أنها ماتت ، ان هذه الشعلة من الحركة والحياة قد انطفأت الى الأبد .. خطفتها ادرع مجهولة ، كنت أرفض أن أصدق ولا أزال أومن بانها ستعود .. ستعود .. فانسانة كهذه لا يستحق أن تموت ..

كان الصمت يتلولب مع خطوط صور الشمعدين المتكسرة .. ورجعت صورة القبر الى رأسى .. وبدأت اشعر أن ثمة خطوات تمشى على السلم الخارجى .. وسمعت صرخات حاقدة متتالية .. ممزوجة بصيحات الرنان الحزين .. ورجعت كلماتها تدوى فى أذنى ..

ـ وشعرت بأن شيئا غريبا يا اماه يمكن ان يحدث فى هذا العالم مادامت هناك ارادة الانسان .. وها هى ذى ارادتى تتحرك الآن وتسيرنى .. انها الخيوط التى تربط الانسان بالحياة .. تربط كل شىء بالحياة ..

ـ عندما يفكر الانسان بالحياة لاتستطيع أية رياح أن تقتلع جذوره المغروسة فى أرضها ..

ورجعت صورة القبر .. مشوهة بشعة .. ورجعت صراخاتها العنيفة التى

تعلو .. وصوتها الرنان الحاد المملوء بالرعب، اثناء ذلك شعرت بانها تحيط حية داخل القبر تحركها الارادة القوية .. ولم اتمالك نفسي .. ركضت الى النافذة وفتحتها لأرى القبر ..

وكان هناك .. مغمورا بالليل والصمت .. وفجأة رايت ذراعين تمتدان من طرفه وسمعت صوتا خافتا مجهدا :

اغلقت النافذة بخوف .. ورميت وجهي على ذراعي المتمسكتين بمقبضيها ، وعاد لي الصمت عميقا وصاخبا .. ورحت الخطوات خارج الغرفة تدوي وتقترب .. ثم .. وفجأة .. فتح الباب .. وانتصبت بشموخها وعنف ارادتها أمامي .. كانت يدها ممسكة بساقة زهور .. وكانت تلبس ثيابا غريبة رمادية .. دخلت بهدوء وهي تبتسم .. وتكلمتي .. كان صوتها رائعا حزينا كما عهدته ، لكني أشعر الآن انه يأتيني من اعماق سحيقة وبعيدة ، من جزيرة نائية وسط بحر مجهول .. الم اقل انها لم تمت .. أ.. وهاهي ذي قد عادت كما كنت أنتظر ..

ـ هل نمت لانا يا أمي .. ؟

ـ أجل ياعزيزتي .

ـ ان رائحة الغرفة عجيبة اليس كذلك ؟؟ لم أشتم رائحة العفن الا في القبر !!

ـ ليمسكها احد بعدك ..

ـ ولن يمسكها أحد .

توجهت نحو وعاء الزهور وتناولته

ـ سأذهب لاملاء ماء ..

ودهشت .. كان كل شيء يجري كالحلم امام عيني . ولمكنني في هذه اللحظة بالذات شعرت بانني أفقد شيئا غاليا .. واكسب شيئا آخر .. اعتز به .. شعرت بان كل شيء يمكن أن يحدث في هذا العالم . ورحت الى صورة شجرة الحور المقطوعة والاغصان الباقية من بقايا الجذع ..

دخلت حاملة وعاء الزهور.. ووضعته في مكانه واخذت تنسق فيه باقتها .

ـ أتسقون زهور الحديقة كل يوم ؟

ـ اواه يا ابنتي .. لم تعد تعتني بالحديقة ، لقد تهدمت واقتربت من النهاية كما ترين ..

نظرت الى بعناب ثم توجهت نحو النافذة وفتحتها ، اقتربت منها قائلة لها :

ـ أمت نعمة اليس كذلك ؟؟

ـ لا .. أبدا .. لقد جئت لزيارتك .. كيف لانا يا أماه ؟ لقد اشتقت لها كثيرا حدثيني عنها .

كانت تنظر الى الفضاء المسحوق مع الليل ، وكان في عينيها لمعان غريب ، لم اعتد رؤيته أبدا .. لمعان عالم آخر ..

وبعد لحظة من الصمت تابعت دون أن تنتظر الجواب .. وقد غيرت الموضوع كليا ..

ـ لن تحتاجوا لهذا القبر بعد اليوم يا أماه .

ـ لماذا يا ابنتي .. انه قبرك ..

ـ كان حتى اليوم قبري .. ولكن الآن .. لم أعد فيه .. جئت

لأودعك ولأقبل « لانا » ثم ارحل ..

ـ الى اين ..؟

ـ سأمتطي جوادنا الهمزيل .. وارحل .

ـ حسنا ولكن .. الى تاكل ..؟

صمتت البارحة بعض الدقائق نظرت الى صاحبة .. وقالت

ـ الأموات لا ياكلون .. يا أماه ..

المخلفت السافدة .. ومشت تدرع الغرفة . كانت رائحة ثيابها عجيبة جدا .. وهناك . وقفت في نهاية الغرفة .. واستدارت نحوى قائلة

ـ لنذهب الى غرفة لانا ..

تبعتها بصمت .. كنت هادئة .. ربما لأنني عجزت عن فهم ما يدور حولي . ولكن صورة الاغصان وبقايا الساق .. لا تزال ماثلة امام عيني ..

دخلنا غرفة الطفلة .. التي كانت نائمة واقترب شبح الأم من السرير ونظرت اليها بحنان .. وعلى الضوء الخافت كنت استطيع ان أتبين شعثها

المصرتين . ووجهها الشاحب الذي يقترب من وجه الطفلة والتصقت قبلة ما على الخبز الناضج ..

بعد قليل .. استدارت نحوى وناولتنى مليا بيمينيها الحادتين .. وهمهمت ..

ـ الوداع يا امام ..

ـ الى أين ؟..

ـ حيث يسوقونني .

ـ من هم ؟

ـ رعاة القطيع البشرى ..

ـ الوداع اذن .. سانتظرك .. هل ستعودين مرة أخرى ؟..

ـ ربما ولكن لن أعود الا مع الليل..

وفتحت الباب .. وخطت .. كانت خطواتها تختنق كلما ابتعدت وشعرت بانه يجب الا اتركها تذهب .. اسرعت .. لكنني لم أجد أحدا .. كانت تبة رياح خاطفة الصوت تهمهم وانة ماتت بعد لحظة من بعيد ..

أواه ـ لقد فقدت كل ما املك . بي رغبة لأن افعل شيئا ما ... اقتل انسانا .. اكسر بائعة .. احنق نفسي .. وانفجرت بالبكاء .. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن أفعله في هذه الليلة .. لم أعد أستطيع أن أفكر ، عجزت عن ادراك أي شيء . لم اعد أفهم ما هي ذي المربية تدخل ..

ـ آه يا سيدتي .. لم دخلت هذه الغرفة ؟ ما بك ؟

واحتضنتها وانا أشهق .

ـ لانا .. احضريها الآن .

ـ انها نائمة ؟

ـ أريدها بسرعة ..

ولم تمض دقيقتان حتى كانت تحملها بين ذراعيها . وترميها في حضني .. وتنحني تحوف أمام قدمي .. نظرت الى لانا .. قائلة لها :

ـ لانا .. هل احسست بقبلة أمك .. كانت شفتاها مصرتين عندما لامست خدك ، لقد رحلت مستطلة الحواجبين وقالت انها ستترجع في يوم ما .. مع الليل .. فلتنتظرها يا لانا .. طوال الليل .. ولتنم النهار بكامله .

كانت لانا خلال كلماتي تنمو .. لكنني أسارع وارفع راسها بأصابعي

ـ ما هي ذي الزهور التي قطفتها لك من الحديقة ؟

واستدرت الى المربية قائلة :

ـ احضري الزهور ..

وتملكني الصحب .. كانت المربية ترتجف تحوف أمامي . وصرخت بها مرة أخرى بعنف ..

ـ احضري الزهور .

وانفجرت الطفلة بالبكاء .. وتمتمت المربية .

ـ اية زهور يا سيدتي ..

ـ الزهور الموضوعة في وعائها ..

ـ ان الوعاء فارغ .. ولا شيء فيه..

ـ الزهور التي احضرتها انفسها ـ أم الطفلة ـ .

ـ انها ؟.. انها ميتة يا سيدتي ..

ـ ميتة ؟ آه .. أعرف ذلك ..

لكنها حانت هذه الليلة وقبلت لانا ..
ألا ترين غبار شفتيها على جبين الطفلة .. غبار الغبر ..

ـ لا غبار البتة على جبينها .

ـ والحصان الهزيل أيتها الحمقاء ، لم يعد في حديقتنا ، لقد امتطته وذهبت قائلة انها ستعود يوما ما .. مع الليل .

باغتتني المربية وارتميت على مترعة الطفلة من أحضاني .. واتمتمت بها وهي تقول ..

ـ لا تنسى الطفلة لقد حدثت .. الأموات لا يعودون ، الأموات لا يعودون ، الأموات لا يعودون ..

وكررت كلماتها الأخيرة بحدة وعنف فصرخت بها ..

ـ كفى انها لم تمت بالنسبة لي ..

ـ ها هي ذي نقاط الدم على الارض تعري الحقيقة ، انظري ولا تخافي .. نقاط دمها العتيق .

ـ لقد عادت أيتها الحمقاء . وها هي ذي الزهور موضوعة هناك ..

ـ ان عينيك تشاهدان زهورا لاوجود لها ..

ـ أنت تكذبين .. ها هي ذي هناك .

وخفضت رأسي متمتمة .

ـ آه لماذا لا تصدقونني .. لقد عادت .. لقد عادت .

وأجابتني المربية بهدوء

ـ حسنا سيدتي .. لقد عادت لكل أرجوك لا تنسى الطفلة الآن وغدا سنعرف كل شيء ..

ـ دعي الطفلة معي .. سأستطيع امها حتى الصباح ..

ـ انها طفلة ... ولا تتحمل ذلك ..

نهضت من المقعد وتوجهت نحو «لانا» قائلة لها بهدوء وحنان ..

ـ لانا .. ألا تريدين أمك .. لقد عادت ..

ـ أجل يا جدتي .. أريدها ... ولكن اين هي ... ؟ أعدها هي عرفتها اين هي ... ؟ أريدها .. اريدها ..

وركضت نحوي لكن يد المربية كانت اسرع منها ، فقبضت على كتفها وأوقفتها قبل أن تصل الى أحضاني ..

ـ ان أمك ميتة يا لانا .. ولن تعود أبدا ..

ـ ميتـــة ... آه .. اني أخاف الأموات ..

واخذت تبكي وتردد .

ـ لا أريد ان أراها .. انها ميتة .. وليست امي ..

واليوم .. ها أنا ذي انتظر ، لقد مضى على زيارتها الأولى اسبوعان انتظرها في غرفتها فاتحة النافذة على مصراعيها ، ناظرة الى الحديقة والى الممر .. مصغية طوال الليل الى خطوات ستمشي على السلم ..

وموت الحصان الهزيل قبل اسبوعين بالذات .. ورقص الجميع .. وشكهم في رقصهم مني . كل هذه الاشياء تمر امام عيني .. وأعجز عن ادراكها .. لقد ابعدوا الطفلة عني .. فلم اعد أراها أبدا .. وهذا هو الشيء الاخير الذي لم اعد افهمه ايضا ..